الجندى السودانى فى المكسيك

عباس ابراهيم محمد على

شهد القرن التاسع عشر انتشار الجندى السودانى المحارب فى بقاع متعددة من العالم • حارب الجندى السودانى فى الحجاز ، واثيوبيا ، وأوغندا ، والكونغو ، وتشاد وشرق افريقيا ، وعلى سواحل البحر الأحمر ، وفى المكسيك • قاتل هذا الجندى لا دفاعاً عن وطنه أو أملا فى نشر دينه • وإنما قاتل خدمة لأغراض ومطامع من جعلوا منه جنديا واستخدموه لتحقيق هذه الأغراض • ونأمل فى هذه المقالة القصيرة أن نحكى قصة الجنود السودانيين الذين أرسل بهم سعيد باشا ــ والى مصر ــ الى المكسيك ليقاتلوا فى الحرب الدائرة فى المكسيك الى جانب الجنود الفرنسيين •

نالت المكسيك استقلالها السياسى من اسبانيا فى عام ١٨٢١ ، ومنذ تلك اللحظة تحركت الدوائر الاستعمارية فى الولايات المتحدة الامريكية وفرنسا للانقضاض على الدولة المستقلة حديثا ، ولم تمض سنوات على استقلال المكسيك حتى استطاعت الولايات المتحدة أن تغتصب منها ولاية تكساس • وحتى لاتقع جميع البلاد فريسة لأطماع فرنسا والولايات المتحدة التوسعية قامت فى المكسيك حكومة وطنية حرة من أجل الحفاظ على استقلال البلاد السياسى ولتحقيق الاستقلال الاقتصادى • ومن أول وأشجع الاجراءات التى اتخذتها هذه الحكومة الوطنية أنها قررت عدم الوفاء بالديون المستحقة عليها الى رعايا كل من بريطانيا وفرنسا واسبانيا وعدم الالتزام بواجباتها المالية نحو هذه الدول • فجن جنونها ، واشتد الغضب برعاياها ، وتحركت الدول الثلاث لحماية رعاياها ومصالحها فعقدت مؤتمراً ثلاثياً فى لندن فى أكتوبر ١٨٦١ • وتمخض هذا المؤتمر عن ارسال حملة عسكرية موحدة الى ڤيراكوز ــ احدى الموانىء الرئيسية فى المكسيك ، وبعد الاستيلاء على هذه الميناء جرت مفاوضات بين الطرفين إلا أنها باءت بالفشل •

وفى هذه اللحظة تبين لكل من بريطانيا واسبانيا أن الغرض الذى كان يسره نابليون الثالث (١) فى قرارة نفسه ويرمى اليه من وراء هذه الحرب فى المكسيك إنما هو تأسيس امبراطوريه كاثوليكية فى تلك البلاد تحت النفوذ الفرنسى وعلى أنقاض حكومة المكسيك الوطنية الحرة. ولهذا سحبت الدولتان جنودهما من المكسيك وبقيت القوات الفرنسية لوحدها فى تلك البلاد .

وقد صور نابليون الثالث الحرب التى تخوضها القوات الفرنسية فى المكسيك على أنها حرب صليبية كاثوليكية ، وبذلك استطاع أن يكسب تأييد المحافظين ورجال الدين المكسيكيين وعطف الرأى العام الفرنسى الكاثوليكى ، ولكن الامبراطور ومستشاريه كانوا يجهلون ظروف المكسيك السياسية وطبيعة جغرافيتها ومناخها . ولقيت القوات الفرنسية مقاومة ضارية من الوطنيين المكسيكيين الأمر الذى حمل الامبراطور نابليون الثالث أن يرجو سعيد باشا ــ الذى كان فى زيارة لباريس ــ أن يمده بالآى من الجنود السودانيين لارسالهم لمساعدة الجنود الفرنسيين فى المكسيك .

ويعتقد كثير من المؤرخين أن السبب الذى دفع نابليون لطلب جنود سودانيين هو أن ارض المكسيك تغمرها الجبال ، وأن طقسها حار ، ومناخها وبيل تنتشر فيه الحمى الصفراء والدسنتاريا ، وكان أن تكبد الفرنسيون خسائر فادحة بسبب حرارة الشمس المحرقة وانتشار الحميات . وساد الاعتقاد وسط الدوائر الحاكمة فى فرنسا أنها لن تكسب الحرب فى المكسيك ما لم تستعن بجنود يمتازون بحصانة طبيعية ضد الحمى الصفراء والدسنتاريا ويتحملون حرارة الشمس المحرقة ، ولهذا

---

(١) نابليون الثالث امبراطور فرنسا (١٨٥٢ ــ ١٨٧٠) وهو حفيد نابليون الاول. كان ذا نزعة استعمارية توسعية ، اذ أرسل جنوده الى بكين ، والى سوريا والمكسيك بغرض فرض النفوذ الفرنسى على تلك البلاد ،وعمل على انشاء امبراطورية فرنسية فى غرب افريقيا .

رأى نابليون الثالث الاستعانه بفرقة سودانية يتحمل رجالها قسوة المناخ فى المكسيك وطلب من سعيد باشا إعارته فرقة كاملة لهذا الغرض ، فوافق سعيد على ذلك (١) .

وفى رأينا أن هناك سبباً آخراً مهماً دفع نابليون الثالث أن يلجأ الى استعارة فرقة سودانية . وهو إن نابليون كان يعلم جيداً أن مغامرته فى المكسيك ستجد معارضة من قطاع كبير من الرأى العام الفرنسى ، وأنه كلما تعاظمت الخسائر المادية والبشرية الفرنسية فى المكسيك كلما قويت تلك المعارضة ، ولهذا استغل نابليون الثالث فرصة وجود سعيد باشا فى باريس وطلب منه القوة السودانية ، ولم يكن سعيد باشا ـ انذاك ـ فى موقف يسمح له برفض رجاء نابليون الثالث ، إذ أن الغرض الاساسى من زيارة سعيد باشا لأوربا فى صيف عام ١٨٦٢ هو محاولته استمالة الدول الأوربية الكبرى للموافقة على اعطاء توصيتها لتركيا من أجل تغيير نظام الوراثة وجعل الباشوية المصرية وراثية فى صلبه (٢) .

ويبدو أن اتفاقاً قد حدث بين سعيد باشا وبين نابليون الثالث تعهد الأخير بمقتضاه أن يتدخل ليرجو الباب العالى اصدار « فرمانات » تؤدى الى توسيع قاعدة الاستقلال الداخلى لمصر وتعديل نظام الوراثة تعديلا جوهريا يجعلها فى صلب سعيد باشا ، وذلك مقابل ان يرسل سعيد باشا فرقة سودانية لتحارب الى جانب القوات الفرنسية فى المكسيك . فقد جعل سعيد باشا عقب عودته الى مصر يعد العدة لأرسال الأورطة السودانية للمكسيك .

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى :تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ ـ ١٨٩٩ (القاهرة ١٩٦٣) ص ٤٦ الأمير عمر طوسون : بطولة الاورطة السودانية المصرية فى حرب المكسيك (القاهرة ١٩٣٣) ص٤ ـ ٥ .

(٢) الدكتور محمد فؤاد شكرى :المرجع السابق ، ص ٤٥ .

وفى ٨ يناير ١٨٦٣ اقلعت سفينة حربية فرنسية من الاسكندرية تحمل ٤٥٣ جندياً من أصل سودانى ، ووصلت السفينة الى ڤيراكوز فى ٢٣ فبراير من نفس العام • واشتركت الفرقة السودانية فى ٤٨ واقعة حربية فى المدة التى قضتها بالمكسيك من ٢٣ فبراير ١٨٦٣ الى ١٢ مارس ١٨٦٧ • وفازت على أعدائها فى جميع المعارك مع أنها كانت دائماً وأبدا أقل منهم عدداً (١) •

وقد أبدى الجنود السودانيون فى جميع المعارك التى خاضوها شجاعة فائقة استحقوا عليها الثناء والتمجيد ، ففى ١٢ يوليو ١٨٦٤ كتب القائد العام الفرنسى مشيداً بهم :

« إن هؤلاء السودانيين الذين لاتسمح نفوسهم أن يبقى الأسير حياً قد أسرفوا فى القتل • وإنى لم أر فى حياتى مطلقاً قتالا نشب بين سكون عميق وفى حماسة تضارع حماستهم فقد كانت أعينهم وحدها هى التى تتكلم وكانت جرأتهم تذهل العقول وتحير الألباب حتى لكأنهم ما كانوا جنوداً بل أسوداً » (٢) •

وأدت هذه الشجاعة الدافقة وذلك الاخلاص فى القتال من جانب الجنود السودانيين الى نتيجة حتمية وهى أن الأورطة فقدت عدداً كبيراً من رجالها ، فقد عاد الى الاسكندرية ٣١٣ جندياً وهذا يعنى أن ١٤٠ جندياً لقوا حتفهم فى المكسيك ، ولا شك أن هذه نسبة عالية ، وتؤكد رأينا الذى أوردناه فى مكان آخر من هذه المقالة وهو أن السبب الرئيسى الذى حدا بنابليون الثالث أن يطلب مساعدة سعيد باشا هو أن الأخير أدرك جيدا أن القتال الدائر فى المكسيك قتال مريع مميت وأن الجنود الفرنسيين لن يستطيعوا الاضطلاع به وحدهم •

عاد الجنود السودانيون الى الاسكندرية قبل أن يكسبوا ــ وحلفاؤهم الفرنسيون ــ الحرب فى المكسيك إذ اضطرت الحكومة

---

(١) الأمير عمر طوسون : المرجع السابق ص ٤١ .
(٢) المرجع السابق : ص ١٣ .

الفرنسية الى سحب القوات الفرنسية والسودانية من الأراضى المكسيكية نتيجة للمقاومة العنيفة التى أبداها المكسيكيون الوطنيون ، ونظراً لتدخل الولايات المتحدة الامريكية الى جانبهم • فعندما بدأت الحرب بين فرنسا والوطنيين المكسيكيين كانت الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة فى عنفوانها ، وما أن انتهت هذه الحرب الأخيرة حتى تبين للحكومة الفرنسية أن الولايات المتحدة لن تقف مكتوفة الأيدى حيال القتال الدائر فى المكسيك لأن هذا القتال يهدد المصالح الامريكية فى امريكا اللاتينية ، ويعتبر خرقاً صريحاً « لمبدأ مونرو » (١) • وكان أن هددت الولايات المتحدة بالتدخل لصالح الوطنيين المكسيكيين • وفى هذه الحالة لم يكن أمام نابليون الثالث اختيار سوى سحب جنوده الفرنسيين من المكسيك •

ولابد للمرء أن يتساءل ألم يسأل الجنود السودانيون أنفسهم لماذا رضوا لأنفسهم أن يحاربوا باخلاص وبسالة حرباً لاناقة لهم فيها ولا جمل ولن تعود عليهم أو على وطنهم بخير أو فائدة ؟ ولماذا يستبسلون من أجل تحقيق غرض استعمارى لدولة أوربية ؟ لايخامرنى أدنى شك أن هذه الأفكار كانت تدور فى أذهان الكثيرين من الجنود السودانيين • ولكنهم قوم ارتبطت حياتهم بالجندية فارتبطوا بها ، استحوذت الجندية على كل مشاعرهم ، وكانوا يعلمون أن ابجديات الجندية تحتم عليهم أن يطيعوا أوامر قائدهم الأعلى وأن يحاربوا باخلاص أينما أرسلوا ، وأن يقاتلوا العدو الذى يختاره لهم قائدهم • وقد عبر عن شعورهم هذا أحدهم اذ يقول : « إن الجنود الذين يدعون للخدمة العسكرية لايقلقون عقولهم بالتفكير كثيراً فى أعدائهم الذين سيقاتلونهم ولا يسألون

---

(١) هذا المبدأ من وضع الرئيس الامريكى جيمز مونرو الذى كان رئيسا للولايات المتحدة فى الفترة ما بين ١٨١٧ — ١٨٢٥ . ويؤكد هذا المبدأ أن أى تدخل أو محاولة للتدخل من جانب الدول الأوربية فى شئون القارة الامريكية سوف يعتبر عملا خطيرا يهدد سلامة الولايات المتحدة وأمنها. وقد أصبح هذا المبدأ الأساسى الذى ترتكز عليه السياسة الامريكية الخارجية الى يومنا هذا .

أنفسهم لماذا هناك حـرب ، ولم نكن ـ نحن الجنود السـودانيين ـ شاذين عن هذه القاعدة العامة » (١) .

وإن كان هناك عزاء للجنود السودانيين الذين شـاءت لهم الأقدار أن يعيشوا بعد تلك الحرب الدامية التى خاضوها فى المكسيك هو أنهم استفادوا خبرة من هذه الحرب . إذ أن طبيعة الحـرب نفسها وضراوتها جعلت منهم جنوداً أشـداء أقوياء مدربين ، كما أن احتكاكهم وقتالهم مع الجنود الفرنسيين قد أفادهم . إذ استطاعوا أن يستوعبوا كثيراً مـن التقاليد والأساليب الفرنسية الحربيـة المتقدمة . وسوف يلعب ضباط وصف ضباط هذه الأورطة السودانية التى ارسلت للمكسيك دوراً هاماً فى تاريخ السودان الحربى فى السنوات الأخيرة مـن الحكم العثمانى فى السودان ، فقد اعتمد عليهم كل من صموئيل بيكر وغوردون وامين باشا فى المديرية الاستوائية . حيث كانوا الأداة الفعالة التى مكنت للحـكم العثمانى فى تلك المديرية ، كما أن غوردون أوكل لعدد من الضباط الذين حاربوا فى المكسيك مهمة قيادة القوات التى كانت تدافع عن الخرطـوم أبان حصار الانصار لها .

---

(١) Captain Percy Machell ; Memoirs of A Sudanese Soldier (Ali Effendi Gifoon) The Cormhill Magazine, New Series Vol 1, July to December, 1896, (London, 1896), P. 184.